من الاشواق الطبرية

شجرتي الضـــــالة

« مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي »

للأستاذ خليل هنـداوى

مقـــدمة :

« لى شجرة ضخمة الجذع وارفة الفصن ؛ أحج إليها كل يوم لأتبوأ جذعها الأبتر مقعدا ، حيث لا يطرقنى إلا الطيور النازحة والغمائم الرائحة . شأن هذه الشجرة عجيب ، قد غبرت عليها عصور ، وهى ثابتة تبدل قشوراً بقشور ، لا يمسها نصب ولا فتور . والسالك فى ذلك الطريق الوعر ينجذب بظلها ، فيأوى إليها تخففاً عن نفسه بعض ماناء بها من مشقة الطريق ؛ فيرى الظل والراحة والنعيم ؛ فينسى لو أقام أيامه تحت ظلها ؛ أو لو أن حياته القلقة تحتوى على مثل هذا الظل الذى تنحط عليه الشمس من كل مكان لتحرقه وما هو بمحترق ؛ ولكن الانسان ما أشقاه ! ولوع بالسير ولكن إلى أين ؟

هذه الشجرة آثرتها لى مثوى فى أيام صبى ، لانها تقصينى عن الناس وتدنينى من نفسى ؛ وما آثرته لجسدى متنقلا كيف لا أوثره له يوم تندو حقيقته ظلا ! . . . . »

« خليل »

المسلك اليك وعر يا شجرتى !

وهأنذا قد سلكته

الطريق محفوف بالشوك

وهأنذا قد طرقته . . .

* * *

يقولون عنك « ضالة » لأنك آثرت هذه العزلة العميقة ، وهذه الزاوية السحيقة

وينظرون اليك ساخرين لأنك تركتهم وملت إلى الانفراد .

كم يخشى الناس هؤلاء المعتزلين !

يرونهم فيقولون : ربنا لا تجعلنا من الضالين

* * *

أتضنين على من سلك الوعر اليك . . .

ضالاً عن قرنائه

بهذا الفيء الذى جاهدت جذورك وأوراقك وروحك فى حياكته

ولو أردت الظل لنفسك لما تعبت فى مده

والظل الخفيف يغنيك ...

ولكنك لست كالانسان الذى يقضى العمر كله فى حياكة ظل لنفسه ، ويمضى غير منتهٍ من حياكة ذلك الظل

أما ظلك أنت فقد حُكتِه !

وهذا الظل الواسع الممدود على الأرض لمن تحوكينه ؟

أليس — للضالين — أيتها الشجرة الضالة ؟

إلهى اجعلنا من الضالين !

* * *

أتضنين على من تحمل النصب من أجلك — وقد تكونين أنتِ فى غنى عنه —

أتضنين عليه باستواء قصير على منكبك العالى

ليشركك فى تأملك العميق

وإن ضلالك ليشرك ضلالى

وظلك الممدود ينادى خيالى

فلا تثاقلى من استوائى عليك ، فانني لن أشوش عليك تأملاتك

ولن تعطل طيورك أهازيجها من أجلى

افتحى قلبك لى فانى لاجىء اليك

وأومئى بأوراقك فانى ضال مثلك

* * *

أأنت تلك المحجة التى يسعى اليها الانسان غير حافل بوعورة الطريق ؟

أأنت تلك المحجة التى تناهضها الصخور والوعور والأشواك لتواريها عن العيون ؟

وكم يكلف الوصول إلى هذه المحجة ؟

ارتفعى كثيراً واسمى كثيراً ، حتى تبدو للضالين ذروتك ، واصعدى بأغصانك إلى السماء

وليجذبها شوقك دائماً إلى السماء

* * *

هل رأيت المحجة بعين الشوق ، فأنبأت رفيقاتك فسخرن منك ، لأنهن لا يرين إلا بعيونهن ، فاعتزلتهن ، وانطلقت وحدك وراء المحجة . . .

نورها يسطع للعيون براقاً ، فما أدناه للعين وما أبعد تناوله !

اغمض عينك فقد جدت ، وسالى قدمك فقد ارتمشت والمحجة لا تزال بعيدة كالنور الذى ترنو إليه العين وتقصر عنه اليد

* * *

ألا ان المحجة فى عالم أنفسنا قد سطعت ، فمدى يدك إلى قلبك تلمسها ، وانظرى بعينك فى نفسك تبصريها

ألا ان المحجة فى أنفسنا . . .

* * *

ستضرمنا العاصفة ثم تذروناً الرياح رماداً قبل أن ندرك هذه المحجة

أليست هى فى أنفسنا ؟ ولكن الابعاد الشاسعة بين نجوم الفضاء . . . هذه الأبعاد التى ترتجف لها مقاييسنا حين نمدها بينها ، هذه الأبعاد هى أقرب تناولاً من الأبعاد الشاسعة المنتصبة بيننا وبين أنفسنا

أين أنت أيهذا الذى بلغ نفسه !

بلى ! ستضرمنا العاصفة ، وسنحول رماداً قبل أن تنتهى مراحلنا إلى أنفسنا

* * *

كلانا ضال وراء نفسه

كلانا يرهب طريقه الناس ، لأن طريقنا طريق الوحدة ، وطريق الوحدة طريق الضلال

كلانا يمشى وإن لم يكن فى نظر المقاييس شيئاً ، لأن مشينا لا تدركه مقاييس

* * *

ضمينى اليك يا شجرتى الضالة فقد أضوانى السير ولفحت وجهى الشمس

ضمينى اليك أقرن تأملاتى بتأملاتك ، فنحن فى نظر الحياة شريكان يتمم بعضنا بعضاً

تضيئنا شمس واحدة ، وتثير طريقنا مصابيح واحدة ، وتعانقنا غابة واحدة

مشهدك واحد فى حياتك كلها لا يبرح ناظرك ، ولك منه كل يوم وجه للتأمل جديد

ومشاهدى كثيرة واعتبارى منها قليل

* * *

وواصلى أيتها الطيور أغانيك فوق رأسى فما أنا بالمروع لك !

وغذيني أيتها الشجرة الضالة بغيثك الواسع

وغداً أغذى جذورك بلحمى ودمى

ألست ظمأى إلى دم انسان !

محجتنا واحدة وصداقتنا عميقة فوق ظهر الأرض وتحت بطنها

ستمتصنى جذورك عصيراً ، وستحملنى سراً عميقاً إلى فروعك السامية

إننا لن نقف !

لأن الشمس تبارك أشواقنا وتثير أرواحنا لأننا أحسنا الاستحالة

وبغير هذه الاستحالة كيف يريدون أن تحوك جذورك هذا الظل الوارف الذى يأوى اليه الضالون !

وكيف يريدون أن تعيش هذه الزهور المتفتحة بدون رماد !

ألسنا فى حالى الفناء والوجود قافلة من قوافل الحياة السائرة منذ الأبد حتى الأبد ؟

ألست فى صدرك حياً أيتها الشجرة ؟

ألست أنت حية فى صدر النار التى ستلتهمك ؟

ونحن ألسنا بعد شيئاً ينبض فى قلب الحياة دماً ولحماً ، وماء ونباتاً ، وناراً ورماداً ؟

* * *

ربى أحلنى فى قلب هذه الشجرة ثمرة يباركها قلب جائع ، ثم اجعلنا وقوداً لنار يهتدى بها الضالون ؟

« كفربا » خليل قنصارى